الحج ركن من أركان الاسلام
والدعامة الكبرى فى صرح الاجتماع

للأستاذ مصطفى الصاوى

لعل من أوضح الدلائل على أن الاسلام ، عنى أول ما عنى بوضع نظام الحياة البشرية على حال، يمكنها من قطع مراحل الحياة فى طمأنينة واستقرار، أن جعل أركانه الأولى خمسة ومن بينها الحج :

ولعل من أكبر البراهين على أنه عنى بالناحية الاجتماعية عناية تامة ذلك التشريع الحكيم الذى كانت إحدى دعائمه فريضة الحج . ثم لعل من أقوى الدلائل على أنه تشريع حكيم، وسياسة رشيدة ذلك الترتيب الذى نظمت على غراره مناسك الحج ومشاعره . ففى أركانه وفرائضه ومسنوناته من النظم الارشادية للجماعة الانسانية مالو اتبعتها لسعدت فى الحياتين ولسار ركبها فى بيداء الحياة الوعرة المسالك آمنا مطمئنا متئد الخطى موفور الأمن والسلام.

ولعل من أعظم الحجج على أنه التنزيل الربانى والوحى السماوى ان جعل كل اتجاهاته وأهدافه الى الروح وتهذيبها أولا ثم ألى تنظيم الحياة البشرية ثانيا . وذلك خير ما يدعو اليه المصلح الاجتماعى . فاذا ما هذبت الروح استعدت للتوجيه وقبول الإرشاد . فلا عجب اذا كانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من ذلك اللون وهذا الطراز ، ولا غرابة اذا كانت ثمرة ناجحة قد وفقت التوفيق كله . وهل هناك طبيب للاجتماع وطب للاجتماع خير مما أنزله خالق الاجتماع على طبيب الاجتماع .

يجدر بى وأنا أتحدث عن فريضة الحج أن آتى على إلمامة موجزة من حياة ذلك الدين تبين لنا الغرض الذى كان يهدف اليه ، والغاية التى يرمى اليها ، والوسائل التى اتخذها ذلك المصلح الاجتماعى الأعظم حتى بلغ رسالة ربه وجمع شوارد النفوس وجوامح الأفئدة على مبدأ واحد . وحتى كوّن منهم أمة وصفها القرآن بأنها (خير أمة أخرجت للناس) .

جاء ذلك النبى بذلك الدين على فترة من الرسل قد استحكم فيها الخلاف بين البشرية الجامحة. فاستحالت من نظام دينى سماوى وضع أسسه الأنبياء المرسلون السابقون الى فوضى شاملة وانحلال خلق وتغلب للذاتية على ما يجب نحو الجماعة فاستشرت الأثرة واستأسد الشر، حيث كانت حروب مشتعلة، ونهب للاموال، وسفك للدماء، وذلك الى جانب مبدأ الاستباحة الغشوم الذى يفرض القوة على الضعف ، وفى ظلال ذلك المبدأ انتهكت الحرمات فحرمت

المرأة من حظها من الحياة وسلب اليتيم ماله وقتل الولد خشية الإملاق، ووئدت البنت خوف العار، الى غير ذلك من تلك الأمور التى هى كفيلة أن تمحق دولا وتبيد ممالك وتذر الأمم حديث الأمس وأقصوصة التاريخ .

فى ذلك الجو الملتهب وهـذا الوسط المكهرب المكفهر ظهر ذلك المصلح الاجتماعى الأول محمد بن عبد الله فاتجه الى إصلاح المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما زال بالناس يبلغهم رسالة ربه ، وينشر لواء السلامة والسلام بينهم ، تدريجيا باخلاص وحرص على أن يحيوا حياة السعادة ، ويكونوا مثلا عليا وهم يقابلون ذلك بالإيذاء والصد والتحدى حتى رتب حياتهم بعد أن رقق منهم المشاعر وأرهف الأحاسيس وعلمهم الصدق والوفاء والأمانة واحتمال الأذى والصبر على المكاره، فكون منهم دولة فتية قوية ذات ملك عضود وذكر شرود تجتمع على كلمة التوحيد وتستقبل قبلة واحدة وتصدر فى شؤنها الدنيوية والأخروية عن الدين وترد فى كل رغائبها موارد هذا الدين فحسن حالهم وعزوا بعد ذل وأيسروا بعد الفاقة المستحكمة وانصرفوا عن حروب تأكل الأخضر واليابس الى سلم مهد لهم السعى فى الحياة لتوطيد السكينة وإقرار الهناء والسلام، واطمأنوا الى ذلك الدستور الجديد الذى سوى بين الناس جميعا حيث جعل من فقراته (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) و (لا فضل لعربى على عجمى ألا بالتقوى) وأصبح الناس فى دين الله إخوانا ، نادمين على مافرطوا فى جاهليتهم فرحين بما أوتوا من هداية وخير، مؤملين غفران ما مضى، طامعين فى المثوبة على ما يأتى :

كانت تشريعات هذا الدين كلها تهدف إلى تكوين الأفراد أولا، ثم إلى تنظيم الجماعات ثانيا ، ثم إلى توطيد الدولة ثالثا ، وتلك خير السبل للاصلاح الاجتماعى المراد .

وإذا كنا بصدد الحديث عن الحج وبيان أنه ركن من أركان الدين أولا، وأنه الدعامة الكبرى فى صرح الاجتماع ثانيا ، فأحق بنا أن نتحدث عنه من ناحيتين :

الناحية الأولى — الحديث عن الحج باعتباره صلة بين العبد وربه . وقربة يتقرب بها اليه .

الناحية الثانية — الحديث عن الحج باعتباره دعامة قوية فى صرح الاجتماع، ووسيلة من وسائل إصلاح المجتمع البشرى العام، وإذا كان العبد مسئولا عن إحسان الصلة بربه، وكان فى شديد الحاجة لأن يبتعد عما يغضبه ، ويتقرب من مرضاته ، كان لابد لنا من النظر فى الحج ، وبيان الخطوات المقربة الى الله ، المباعدة عن النار والعذاب .

فالخطوات التى يحتويها الحج هى ما يأتى :

(أولا) أن التصديق به ركن من أركان الدين ، وتحقيق ذلك بالامتثال المصمم المحقق بالإحرام به خطوة أولى فى طريق النجاة وسبيل الى الجنة .

(ثانيا) ذلك السفر الطويل الشاق، وما يقتضيه من إنفاق للأموال، وهجران للأوطان، الخطوة الثانية الى الجنة .

(ثالثا) ذلك الطواف حول مبنى من المبانى بعقيدة ثابتة يمتلىء قلب الطائف إجلالا لرب البيت وعياذ بالدموع هتانة بالأسف والاشفاق من الله ، الخطوة الثالثة .

(رابعا) قهر النفس والزامها ترك عادة متبعة بالتجرد عن المحيط والمخيط وما كان المحرم ليتركها اولا أنها أساس قبول الحج وصحته ، خطوة رابعة فيها يتساوى السيد والمسود والخادم والمخدوم .

(خامسا) قهر النفس بالهرولة فى السعى بين جبلى الصفا والمروة ، وفى ذلك من نسيان الوقار وترك الذاتية الشخصية والتنازل عن كثير من عزة النفس بقلب راض راضخ ، خطوة خامسة .

(سادسا) ذلك الوقوف بعرفات ذلك الجبل المبسوط المسطح وفيه من الشقاء والألم بتحديد الزمن وغيره ، خطوة سادسة .

(سابعا) تلك الحصى والجمرات يجمعها و يقذف بها فى مكان مخصوص كواجب من واجبات الحج سابع الخطوات . خطوات كلها أيها السادة فيها من المشقات والأتعاب الشىء الكثير ، وهى موصلات الى رضاء الله تعالى وغفرانه قد جعل جزاءها الجنة وتكفير الذنوب فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) .

هذه هى الناحية العبادية فى الحج وكفى بها وسيلة الى تهذيب النفس و إعداد الشخص للكمال وتهيئته لمصير ينتظره حتما .

أمّا من الناحية الاجتماعية :

فإن التزام الانسان أمر الحج واعتزامه تأديته مع ما فيه من المشقات لا تكون إلا عن ارادة قوية صادرة عن عقيدة ثابتة وما أحوج الاجتماع الى وجودها فى نفوس الأفراد و إن مجتمعا كانت أفراده أولى إرادة قوية صادرة عن عقيدة صادقة فهو خير اجتماع يبنى الدولة ويكون الأمة على الوضع الصحيح .

و إن الاحرام بالحج وتأدية أعماله بانتظام والسفر على برنامج محدد تكوين لذاتية الفرد وتصحيح لفكرته وعمله وذلك جل ما يهم المتصلح الاجتماعى .

و إن التجرد من المحيط والمخيط لتعويد للنفس أن تتجرد من عوائدها وأن تستعد لقبول الاصلاح مهما كلفها ذلك الاصلاح من ترك العادات واللازمات . و بيان للناس أن المساواة أمر لابد منه لسير الركب البشرى فى سبيل حياته ، فانك ترى جميع الحجاج قد تساووا فى الملبس والعمل لايفرق فارق بين سيد ومسود ، ولا بين عظيم وحقير ، وغنى وفقير ، و إن فى الطواف والسعى لأسرارا بديعة . فالطواف يرمز الى الآداب العامة حيث يعلم المجاملة فلا يدخل على غيره دون أن يستأذنه و يسلم عليه كما أن الطواف استئذان رب البيت وتسليم عليه وهى تحية والتحايا على اختلاف المحيا فما أجمل هذا النظام .

إنا لو نظرنا الى الحكمة المتجلية فى الطواف لارتاحت نفوسنا الى ذلك التشريع فانها ترتفع بالأرواح الى القدسية التى يجب أن ترتفع اليها والتى لا بد لكمال النفوس البشرية منها. وإن فى امتثال الناس أفرادهم وجماعاتهم الأمر البعيد السر عن ادراك العقل رمز للطاعة الصحيحة والنظام الدقيق وإشارة للناس أن سيروا كاشارة أولى الأمر منكم فى نظام وإيمان (وهل تبنى الدول ، وتدعم الممالك إلا على النظام والطاعة) ؟

أيها الناس ، إن فى تشريعات الحج تقريرا لمبدأ الحرية والإخاء والمساواة قبل أن يخلق فى فرنسا مبدأ الحرية والإخاء والمساواة . وأن فى تشريعات الحج ومشاعره تقرير المبدأ الإذعان والطاعة والاخلاص والنظام قبل أن توجد الأمم التى دستورت نفسها على مبدأ الإذعان والطاعة والنظام ، وإن فى تشريعات الحج توجيه النفس إلى نسيان الذات ونكران الشخصية والاندماج فى الجماعة والعمل لها قبل أن يعرف الناس شيئا يسمى الجندى المجهول فلذلك ساد هذا الدين العالم ، واستولى على المشرقين والمغربين لكن عن طريق العقيدة والاقناع ، لا من سبيل القوة والحسام .

إنا لو نظرنا أيها السادة إلى تلك الفريضة بعين باصرة لتجلت لنا العبر وواجهتنا الآيات البينات على أن المشرع كان يهدف أول ما يهدف إلى تصحيح الاجتماع وتنظيم الحياة على وضع صحيح وإقرار سليم ، فقد ربط بين الناس بوشائج الوداد وجعلهم متضامنين متعاونين إذ حدد أحكام الحج تحديدا من ضل عنه كان جزاؤه النزول طواعية واختيارا عن جزء من ماله لفقراء الحرم ومساكينه : أرأيتم تشريعا يعاقب المسىء من بنى الإنسان بالترفيه عن أخيه الانسان مثل هذا التشريع الحازم الحكيم : تشريع قد ربط الأواصر وجمع الناس على مائدة السلام ووطد العلائق فنعم هذا التشريع الحكيم .

فالإحرام بالحج معناه الشروع فى عمل جديد يقتضى المحرم عناية جديدة وتغيير أسلوب الحياة الأول ، فلذا رمز إلى ذلك بالتجرد عن ألزم العادات وهى اللباس الذى هو زى الانسان ومظهر كرامته ومحل فخره وارتداء لباس جديد يناسب العمل الجديد . وإذا كان هذا واجبا على كل محرم فقد تحقق معنى المساواة ومبدأ ترك الفوارق بين الناس أجمعين . ثم هو رمز من ناحية أخرى إلى أن الانسان يجب عليه إذا شرع فى أمر ذى بال أن يترك غيره من الأعمال الأخرى ليتوافر عليه تماما . وفى ذلك أمر من طرف خفى بوجوب اتيان الأعمال التى تسند إلى الانسان (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) .

والطواف بالبيت العتيق رمز ظاهر إلى أن تكوين الدول والابقاء عليها إنما يكونان بتحديد الغرض والأهداف اليه كما تحدد البيت الحرام غرضا للطواف والقبلة يهدف إليه المسلمون جميعا ، وهذا معناه أنه يجب أن يكون للمسلمين جهة ثابتة يرجعون إليها إذا مادهمتهم الأحداث ، وإن فى السعى بين الصفا والمروة أمر بالكد والكفاح فى طلب الرزق

والجهاد ونهياعن التواكل والاستسلام . وهذا معناه أن الحياة بلاعمل موت . وأن التقاعد عن الأعمال مهلكة أى مهلكة : وليس أمر جمع الحصى ورميها على الوضع المعروف بأقل فى الأمر بالجد والعمل من السعى بين الصفى والمروة، و إن فى الوقوف بعرفة لإشارة صريحة أو أمرا بأن من واجب المسلمين إذا أردوا الاحتفاظ بدولتهم واستبقاء كيانهم مرهوب الجانب موفور الكرامة أن يكون أمرهم شورى بينهم وأن يعرضوا ما جد من الأمور على مجموعهم للبحث والتمحيص والحكم لتوافر المواهب على إحسان التوجيه، فالوقوف بعرفة بمثابة مؤتمر عام يجمع أنواع المسلمين على اختلافهم ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معدودات وليتشاوروا فى شؤونهم الدينية والدنيوية وفى هذا المؤتمر فائدة كبرى .

وإذا كانت الدول الراقية تعمل على عقد المؤتمرات الاقتصادية والفكرية والسياسية والصحية والدينية فأحر بالمسلمين ألا يتخلفوا عن عرفات ذلك المؤتمر العظيم الذى فيه نجاحهم وفلاحهم فى هذه النواحى جميعا .

وإن فى طواف الوداع بعد الانتهاء من مناسك الحج لأكبر برهان على أن الدين الاسلامى لم يهمل أمر المجاملة والآداب العامة فقد شرع طواف الوداع استئذانا من رب البيت بالرحيل كما شرع طواف القدوم تحية لرب البيت واستئذانا بالدخول، وفى هذا اشارة الى أن القادم تلزمه تحية رب البيت واستئذانه عند القدوم وعند الرحيل .

أرأيتم أيها السادة تشريعا أفضل من هذا التشريع الذى عنى بكل شىء حتى بالمجاملات بين الناس والناس ، تشريع يربط العبادة بالاجتماع والاجتماع بالعبادة ربطا وثيقا .

هذه هى أركان الحج وتلك مشاعره ، وقد ذكرنا سر التشريع فيها وما تفيده البشرية منها فى الآخرة من جنة ورضوان ، وفى الدنيا من نظام وتهذيب للاجتماع ، وهى بهذا الوضع عبادة وقربة وصلة بين العبد وربه أولا ، ثم هى بعد نظام اجتماعى خطير خليق بأن يكون أمة ، وينشئ دولة تستطيع أن تؤدى رسالة من خير الرسالات فى إسعاد البشرية وهنائها تلك التى أهدف إليها القرآن فى كثير من آياته .

تلك الرسالة مداها تعويد الفرد قوة الإرادة و إتقان العمل و إحسان الأهداف وتهيئته لملاقاة الأحداث وتصرفات القدر المستورة المغيبة و إرشاده إلى آداب الاجتماع ونظام الاجتماع ومن مزاياها تكوين الجماعات من لبنات الأفراد الذين تقدم ذكرهم و بتهيئة الأفراد وتكوين الجماعات يستقيم أمر الشعوب وتبنى الدول وتسعد البشرية فى حياتها وتصل إلى الغاية المرجوة فى سلام .

هذا هو تشريع الإسلام وتلك مزاياه وفضائله وهذى أسرار الحج وفوائده .

مصطفى الصاوى

مدرس بالمعاهد الدينية ، وعضو رابطة الاصلاح الاجتماعى